

قصة حادثة للكاتب نجيب محفوظ كان يتكلم في تليفون الدُّكان بصوت مُرتفع، يُسمع صوته رغم ضوضاء شارع الجيش الصالح، وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدُّكان ليبعد ما أمكن عن الضوضاء، ثم ختم حديثه بقوله: "إنتظري سأحضر فوراً". كان في الستين أو نحوها، طويل القامة نحيلها ورؤي الجبهة والعينين. مُكَوِّر الذقن وأما صلعته فلم يبق فوق مرآتها إلا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه، وقد أفسح مظهره عن إهمال صريح نتيجة للسن أو الطبع أو نسيان للذات، علي ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج. وبدأ أنه ينظر إلى الداخل لا إلى الطريق ثم مال يُمنة بمحاذة صف من اللوريات الواقفة نسق التوار حتى وجد منفذًا إلى الشارع، مرق من المنفذ ليعبر الشارع إلى ضفته الأخرى، وما كاد يجاوز مقدمة اللوري الأخير حتى شعر بسيارة فورد تندفع نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد إنه كان عليه أن يتراجع بسرعة وإنه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، ولكنه لسبب ما لعله المفاجئة أو سوء التقدير وثبت إلى الأمام وهو يهتف "يا ساتر يارب" وجرت الحوادث متلاحقة. ندت عن الرجل صرخة كالعلوا وفدي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة الواقفين على التوار، وفوق إفريز محطة الترام صدر عن فرملة الفورد صوت محشرج متشنج ممزق وهي تزحف على الأرض بعجلات متوقفة جامدة وهرع نحو الضاحية في ثوان عشرات وعشرات كأسراب الحمام، حتى تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة الهرج، ولم ينبعض جسم الرجل بحركة واحدة، وكان منكفاً على وجهه ولا يجرؤ أحد على لمسه وإنحدر رجله ممدودة إلى آخرها والأخرى منثنية منحسرة البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر، وقد فقدت حذائهما، وكأن الأمر لا يعنيه البتة. الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتاراً ثم يهوي فوق الأرض كشيء، أندفع هو من أمام اللوري فجأة، وبسرعة وبدون أن ينظر إلى يساره كما يجب، وإذا لم يجد وجهها مستجيماً عاد ليقول بلهجة خطابية: "لم يكن بإمكانني تفادي الصدمة". لعلها إصابة بسيطة" عند فمه انظر. كل ساعة حادثة من هذا النوع" وجاء شرطي مسرعاً وفتح له وقع قدميه ثغرة في السور الآدمي، نفذ منها وهو يصبح في الناس أن يبتعدوا خطوات. خطوات فقط وعينهم لا تحول عن الرجل ولا تخفي حدة تطلعها وإشفاقها وقال إنسان: "سيبقي هكذا حتى يموت ونحن لا نفعل شيئاً" فأجابه الشرطي بلهجة رادعة "أقل لمسة قد تقتلني، وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق إليه" واعتبر الحادث جانب الطريق واضطررت السيارات إلى الإنفاق حول السور البشري مشاركة الترام في ممшаة. فضاق بها حتى تحركت في بطء شديد وتجمعت في صفوف ممتدة ومتدخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن ركبها تلعلت أعين إلى الضاحية في اهتمام وأعين تجنبت النظر في جذع وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلازونية فاتسعت الحلقة وغادرت القوة السيارة إلى الرجل الملقي وكان الضابط حاسماً وحازماً، فأصدر أمراً بتفريق المتجمعين، وتفحص الرجل بنظرة شاملة وسأل الشرطي: "ألم تحضر الإسعاف؟" وإذا لم تكن ثمة ضرورة إلى السؤال فإنه لم يلق بالاً إلى الجواب، وتسائل مرة أخرى: "هل من شهد؟" فتقى ماسح أحذية وسائل لوري وصبي كبابجي كان عائداً بصينية فارغة، وأعادوا على مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. وجاءت سيارة الإسعاف وأحاط رجالها بالرجل، وتفحصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء، ثم نهض متوجهاً إلى الضابط فبادره هذا قائلاً: "أظن يجب نقله إلى الإسعاف"، فقال الآخر بلهجة ذات أثر لا يختلف عادة عن الآخر الذي يحدث عن جرس سيارته: "بل يجب نقله إلى مستشفى الدمرداش" وأندرك الضابط ما يعنيه ذلك على حين استطرد رجل الإسعاف قائلاً: "أعتقد أن الحالة خطيرة جداً". وعندما أرقد الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، كانت طلائع الليل تزحف كالجبال، ثم التفت إلى مساعدته قائلاً: "إصابة خطيرة في الرئة اليسرى، تهدد القلب مباشرة" ثم شهق شهقة خفيفة واستكئن، وكان الطبيب يراقبه، فالتفت المدير نحو مساعدته وهو يقول أنتهي. وجاء ضابط النقطة والراجل ما يزال راقداً بكمال ملابسه، عدا فردة الحذاء المفقودة، فقال الضابط وهو يوميء إلى الفقيد: "شهادة الشهود ليست في صالحه"، ثم وهو يقترب من السرير: "أرجو أن نستدل على شخصيته" وشرع في عمله على حين بسط له الشاويش المراافق له ورقة فوق منضدة، وتأهباً بدوره لتسجيل المحضر، ودس الضابط يده برفق في جيب الجاكتة الداخلي فاستخرج حافظة نقود قديمة متوسطة الحجم ومضى يفتشها جيماً جيماً، روشتة للدكتور فوزي سليمان، وألقي نظرة عابرة على أسماء الأدوية، ولكنه لاحظ وجود كتابة على ظهرها وجره بصره عليها بلا إرادة فإذا بها "البيض والدهنيات منوع، ويستحسن تجنب المنبهات كالشاي والقهوة والشيكولاتة" وابتسم الضابط ابتسامة باطنية، إذ أن تعليمات شبيهة صدرت إليه من طبيبه في نفس الشأن، وانتقل إلى الجيب الداخلي وما لبث أن قال في فتور: "ثلاثة قروش ونصف عملة معدنية" وتوالي التفتيش وتتابع الإملاء، منديل، سلسلة مفاتيح، ساعة يد، وكان آخر ما عثر عليه صفحة مطبوعة من كراسه وبسطها فوجدها رسالة لم تغل بمظروف بعد، نظر أول ما نظر على الإمضاء ولكنه لم يزد عن "أخوك عبد الله"، فعاد إلى رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة إلى أخي العزيز أダメه الله" فاستاء من هذه المعاندة ولم يجد بداً من قرائتها. اليوم تحقق لي أكبر أمل في الحياة، **أضطر**

إلي التوقف رافعا عينيه إلي تاريخ الرسالة وكان تاريخ اليوم نفسه ٢٠ فبراير، وامتد بصره فوق الوجه الأسطر إلي الوجه الباهت المشئوب بزرقة مخيفة المغلق كسر، ذلك الذي تحقق له أكبر أمل في الحياة وتسائل الطبيب عثرت على شيء؟ "فقد انزاحت عن صدرني الألعاب المريرة، انزاحت جميعا والحمد لله، أمينة وبهية وزينب في بيتهن،وها هو علي يتوظف، وكلما ذكرت الماضي بمتاعبه وكدحه وشقاءه أحمد الله المنان، وهذا هو النصر المبين"، واسترق النظر مرة أخرى إلي الإنسان الراحل الذي لا يدري أحد مقره، الذي يثير الدهشة بصمته وانزعاله وارتداده العميق إلي المجهول، "المتابع والقلق والشقاء والأمل الكبير والنصر المبين، وبعد تفكير طويل، قرّرأيي علي ترك الخدمة فعلا، فمهما أن تحسن صحتي طالما بقيت في المدينة، هي الفرق بين المرتب والمعاش، ولذلك قررت أن أطلب إحالتني إلي المعاش وقريباً أعود إلي البلد إن شاء الله